المكتبة العربية
في عصر الحروب الصليبية

الأستاذ أحمد أحمد بدوي

— ١ —

إن الدارس للحركة العقلية بمصر والشام في عصر الحروب الصليبية، يبهره كثرة الإنتاج في فروع الثقافة المختلفة، ويرى أن البلاد لم تعش على ما وفد إليها من كتب ألفت في غير أرضها، بل ساهمت مساهمة كبيرة في النشاط العلمي والأدبي، ولا تزال إلى اليوم نعيش على بعض آثار ذلك العصر، ونتمتع بما له من ثمار

وقد تنوع الإنتاج يومئذ تنوعا يدل على حركة علمية ناشطة، وحمل لواء هذه الحركة أعلام نابغون؛ فمن فقهاء على المذاهب الأربعة إلى نحاة، ولغويين، وعروضيين، ومحدثين، ومفسرين، ومقرئين، ومتكلمين، ورجال أدب، وبلاغة، ومؤرخين وجغرافيين، وعلماء بعلوم الأوائل من منطق وفلسفة وسياسة، وعلوم رياضية، ولم يخل العصر من فلكيين ومنجمين

وساعد على ازدهار حركة الإنتاج ما كان يستطيع أن يصل إليه العلماء في الدولة من أسمى المناصب، ومالهم عند الشعب من إجلال وتقدير، وما يظفرون به عند الخلفاء والسلاطين من تشجيع وتقريب

وكان حكام ذلك العصر مثقفين ثقافة ممتازة، ويحيطون أنفسهم بطبقة مصطفاة من المثقفين، ويغدقون عليهم، وللفاطميين من ذلك نصيب كبير: يروى أن المهذب بن النقاش لما وصل إلى الشام من بغداد، وكان فاضلا في صناعة الطب، أقام بدمشق مدة، ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته، وسمع بكثرة الخيرات المصرية، وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم، ولا سيما أرباب العلم والفضل، فتاقت نفسه إلى السفر، وتوجهت أمانيه إلى مصر، فوجد فيها ما كان يرجوه (١)، وشهر من وزرائهم بحب العلم وتقريب العلماء وتشجيعهم الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي

أما نور الدين محمود فقد كان يحب العلماء ويحتفي بكبارهم ويسكنهم الشام، ويبني لهم المدارس، ويغدق عليهم الرتبات، ويكاتبهم بخط يده (٢). واقتدى به صلاح الدين في تشجيع العلماء وتقريبهم، حتى إن عبد اللطيف البغدادي عندما دخل دمشق وجد بها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي جمعا كبيرا، (٣) وكان مجلس صلاح الدين حافلا بأهل العلم، يتذاكرون في صنوف العلوم، وهو يحسن السماع والمشاركة حتى صار لكثرة مخالطته للعلماء وأخذه عنهم كأنه من كبار الفقهاء يضرب في كل علم من علوم الدين بالسهم الصائب مع امتيازه في معرفة التاريخ (٣)، وولي بعده العرش في مصر ابنه العزيز عثمان، وهو مثقف، سمع الحديث بالإسكندرية من الحافظ السلفي، والفقيه أبي الطاهر بن عوف الزهري. وسمع بمصر من العلامة ابن برى النحوي اللغوي (٤)، وهو الذي رحب بمقدم عبد اللطيف البغدادي إلى مصر، وأجرى عليه من بيت المال ما يزيد على كفايته (٥) واستقدم الحسن بن الخطير من القدس، وأغدق عليه حتى أغناه (٦)

فلما جاء العادل ساهم وإن كانت مساهمة قليلة في النهضة الفكرية، فأنشأ بمصر مدرسة للمالكية، وذلك لانصرافه إلى الحياة السياسية، ونقبت دعائم العرش له ولابنيه، ولكن أبناءه كانوا أكرم الأبناء: نهوضا بالعلم، وأخذا منه بأوفى نصيب، وتشجيعا على الاغتراف من مناهله، ورفعا لقواعد معاهده، فكان الكامل يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، ويشغف بسماع الحديث النبوي وقد بنى له دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو، يمتحن بها، فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده. وبنيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم بجانب سريره ليسامروه، فتذاكروا العلوم والآداب

(١) عيون الأنباء ج ١، ص ٩

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٨٢ (٢) عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٠٤ (٣) الإسلام والحضارة العربية لكرد علي ج ٢ ص ٢٩٢
(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٥ ؛ عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٠٧
(٥) معجم الأدباء ج ٨ ص ١٠٠

عنده ، وقصده أرباب الفضائل ، فكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارة ، ويجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم ، ويشترك فى المناقشات التى تجرى فيه .(١)

أما المعظم عيسى بالشام فكان مأمون بنى أيوب، شجع العلماء وأكرم وفادتهم ، وشاركهم فى التأليف ، وكذلك كان ابنه الناصر داود

واقتدى المماليك بأساتذتهم الأيوبيين ، وكانوا هم يزودون بالثقافات التى تؤهلهم للوصول إلى مناصبهم ، وشهر من بينهم فى ذلك العصر الظاهر بيبرس فقد أخذ يقرب إليه العالمين فى كل علم وفن ، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا شديداً ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب (٢)

أما خليل بن قلاوون فكان مثقفا ثقافة أدبية ممتازة استطاع بها أن ينقد ما يعرض عليه من المراسيم وأن يصلحها ، ويطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط (٣)

— ٢ —

وانتشرت دور العلم فى ذلك العصر : فكان الجامع الأزهر أيام الفاطميين موطن دراسة الفقه الشيعى والمذهب الإسماعيلى ، ونهضت دار الحكمة بالعلوم الفلسفية وربما كانت هذه العلوم تدرس بالأزهر كذلك ؛ فقد كان الدعاة وهم أساتذة دار الحكمة يجلسون للتدريس فى الجامع الأزهر أحيانا كثيرة ؛ ولما مذهب أهل السنة قد وجد سبيله إلى الأزهر فى الأوقات التى ضعفت فيها حدة الدعوة الإسماعيلية كما فى عهد الأفضل والعادل بن السلار

وإذا كان صلاح الدين قد أبطل الخطبة فى الجامع الأزهر ، وقضى على تدريس المذهب الشيعى فيه ، فإن التدريس لم ينقطع منه ، وها هوذا عبد اللطيف البغدادى يأتى إليه فى عصر العادل، ويتردد عليه عشر سنين مستمعاً إلى الأساتذة والمحاضرين حيناً ، وقائماً بتدريس الطب والفلسفة والمنطق طرفى النهار حيناً آخر وعاد الأزهر إلى نشاطه فى عهد بيبرس ومن جاء بعده

وإلى جانب الأزهر كان جامع عمرو ينهض ببعثه فى نشر الثقافة وإذاعتها ، فتصدت به حلقات العلم فى مختلف فروع الثقافة ، وكان له من الأثر فيها أكبر مما للأزهر ، لأن أحداً لم يحاربه ؛ كما قامت بعض المساجد فى أرجاء البلاد بنصيبها من النهضة الثقافية

وفى الشام كان الجامع الأموى بدمشق يؤدى الرسالة التى يقوم بها جامع عمرو فى القاهرة ، وكانت دمشق أبعد من أن تنالها آمال الصليبيين ، فظلت الحركة العلمية ناشطة بجامعها العتيد، ونهض جامع حلب بنصيب فى نشر الثقافة أيضاً

وشاهد ذلك العصر بناء المدارس وانتشارها فى مصر والشام ، فأنشئت بالإسكندرية فى عصر الفاطميين مدرستان فى عهد الحافظ واحدة ، وفى عهد الظافر لمثلها أخرى . وفى الشام أخذ نور الدين ينشئ المدارس ويستدعى نوابغ العلماء من الأقطار يبنى لهم المدارس فى أرجاء إمارته ، حتى إذا جاء صلاح الدين تأثر خطا سلفه ، فأنشأ كثيراً من المدارس فى أرجاء إمبراطوريته بمصر والشام ؛ فمن ذلك الصلاحية بالقاهرة للشافعية ولعلها كانت أكبر مدرسة فى عصرها ، والقمحية للمالكية ، والسيوفية للحنفية، والصلاحية بالقدس ، وقد أحصى فقهاء مدارس دمشق فى عهده ، فكانوا سبعمائة فقيه

واقتدى بصلاح الدين خلفاؤه من الأيوبيين ، ومن جاء بعدهم من سلاطين المماليك ، وساهم أمراء الأسرة المالكة وأميراتها وأمراء الدولة فى إنشاء المدارس بمصر والشام كتقى الدين عمر الذى اشترى منازل العز أحد قصور الفاطميين بالقاهرة ووقفه مدرسة كما بنى بالفيوم مدرستين عندما كانت الفيوم إقطاعا له ، وبنى فى الشام التقوية بدمشق ، والمظفرية بحماة

وأخذ بعض الوزراء بنصيبهم فى إشادة دور العلم كما أسس القاضى الفاضل مدرسته الفاضلية وكانت من أعظم مدارس مصر وبنى المثرون من المدنيين وغيرهم مدارس ووقفوا عليها أملاكا تكفى للانفاق عليها

وهكذا حفل هذا العصر بإنشاء المدارس فى أرجاء البلاد ، فإنه لم يقف إنشاؤها عند العواصم فحسب ، بل تعدتها إلى غيرها، فرأيناها تقام بالقاهرة والإسكندرية وقوص وإسنا وأسوان وأسيوط والفيوم ؛ وفى دمشق وحلب والقدس وحمص وبعلبك ،

---

(١) السلوك ج ١ ص ٢٥٨ وخطط المقريزى ج ٤ ص ٢١٥ ولين بول ص ٢٣٠

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢

(٣) السلوك ج ١ ص ٧٩١